ظاهرة تكرار المعاني في المعجم العربي

الدكتور إسماعيل أحمد عمايرة
الجامعة الأردنية

مما يَلْفت الانتباه في المعجم العربيّ احتواؤه على معانٍ مكرّرة ، لألفاظ كثيرة متقاربة في مادتها الأصلية . وقد تحدّث القدماء عن هذه الظاهرة ، ولكن في إطار «التشابه» بين معاني هذه الألفاظ ، وليس «تكرار» معانيها .

ولعلهم كانوا يتفادَون أن تُسمى هذه الظاهرة تكراراً ، إذ ربما بعثت كلمة التكرار معنى سلبياً ، قد يُفهم منه أن العربية بهذا تَشْهد على نفسها بشيء من الفضول الذي قد يصاحب التكرار . وقد حَمل ذلك كثيراً من الباحثين على التحرُّز من الإقرار بظاهرة الترادف ، التي يُعَدّ «تكرار المعاني» موطناً خصباً من مواطنها .

وقد «ذهب بعض الناس إلى إنكار المترادف في اللغة العربية ، وزعم أن كلّ ما يُظَنُّ من المترادفات هو من المتباينات»[1] .

ومن الباحثين من أقرّ بهذه الظاهرة ، ودافع عنها ، وعدّد فوائدها ، وجعل منها دليلاً على اتساع العرب في الكلام «وأنّ مذاهبه لا تضيق عليهم عند الخطاب ، والإطالة عند الإطناب»[2] .

---

١ - السيوطي (المزهر) ٤٠٣/١

٢ - السيوطي (المزهر) ٤٠٠/١

ولا مجال لإعادة القول في آراء هاتين الفئتين ، فقد أتى السيوطي على ذكر آرائهما في كتابه «المزهر»[1] .

وأمّا دُعاة العاميّة من الباحثين المعاصرين فقد نَعوا على الفصحى كثرة المترادفات فيها ، فقال أنيس فريحة - وهو واحد من هؤلاء - «حتى أنّ بعضهم يرى في هذه الظاهرة موضع فخر ومباهاة . فلكلّ ساعة من ساعات النهار اسم ، ولكل ليلة من ليالي القمر اسم ، وللسنة (٢٤) اسماً وللظلام (٥٢) اسماً وللسحاب (٥٠) اسماً ، وللمطر (٦٤) اسماً ، وللماء (١٧٠) اسماً وللناقة (٢٥٥) ، وللسيف أسماء لا يحضرني عددها ، وللداهية من الأسماء تعد بالمئات ، حتى قيل : إن أسماء الدواهي من الدواهي . وقد أحصى «هامر» المفردات التي لها علاقة بالجمل فبلغت (٥٧٤٤) لفظة . ولك أن تُضيف إلى هذا إذا كان لديك من الوقت ما تتلهّى به في التقّصي ومراجعة المعجم العربي»[2] .

وعكْس هذا الرأي نجده لدى العَقّاد في انتصاره للفصحى حيث قال : «ولهذا وجدت كلمات : البكرة والضحى ، و الغدوة والظهيرة ، والقائلة والعصر ، والأصيل والمغرب ، والعشاء والهزيع الأول من الليل . . ويكاد التقسيم على هذا النحو أن ينحصر بالساعات . على صعوبة التفرقة بين هذه الأوقات في كثير من اللغات بغير الجُمل أو التراكيب . . . وكلّ موسم من مواسم السنة له شأنه في المرعى والانتجاع وطلب الماء أو التجارة أو الأمان . ولهذا وجدت أسماء المواسم والفصول جميعاً ، ووجدت معها ثلاثة أسماء

١ - انظر : السيوطي (المزهر) ٤٠٢/١ - ٤١٣

٢ - فريحة (عربية ميسرة) ص ١٣ .

مختلفة للدلالة على الدورة حول الشمس في مصطلح الفلكيين : فهي السنة وهي العام وهي الحول ، ولكل منها موضعه في التعبير»[1] .

ولا تخفى المبالغة لدى دعاة العامية في تضخيم هذه الظاهرة ، لإظهار العربّية من خلالها لغة سلبية مائعة ، فما الذي يمنع أن تكون لكل ساعة من ساعات النهار اسم ، ولكل ليلة من ليالي القمر اسم . ولا أحسب هذا من باب الترادف أصلاً . ثمّ إنه لا ينبغي أن يُنظر إلى أي لغة من خلال معجمها التاريخي إذا أُريد الحُكْم على الواقع الآنيّ المستعمل لهذه اللغة ، ليُحكم بالتالي على مدى صلاح هذه اللغة لمزاولة الحياة أو عدم صلاحها لذلك . فإذا كان للسنة ، أو السحاب ، أو الناقة هذا «الكَم» الهائل من الأسماء التي تجمّعت عبر قرون طويلة ، فهذا لا يعني أن ما تَجَمَّع عبر القرون مستعمل كلُّه - أو حتى جلُّه - في فترة زمنية واحدة . وهل نستعمل من ألفاظ الجَمَل - وجلُّها صفات له أو تسميات لبعض أعضائه أو طباعه - إلاّ اليسير منها . وقُلْ مثل ذلك في الناقة ، والسيف ، وغير ذلك .

وإنكار الترادف عند المنكرين يقوم على تَصَوُّرهم لأصل وضع اللغة . وجوهر هذا التصور أن اللغة توقيفية ، وأن الله قد لقَّنها الإنسانَ تلقيناً . ولا يُعْقل أن يكون قد أعطى المعنى الواحد أكثر من اسم واحد .

ويصدر هذا المنطلق عن تصوّرٍ مؤداه أن اللغة وُلدت ناضجة بتراكيبها النحويّة وأوزانها الصرفيّة ، وألفاظها ومعاني هذه الألفاظ ، وعليه ،فقد رأوا أن تسمية الشيء بغير اسم قد يدلّ على تَعَدّد الواضع ، أو يتنافى مع حكمة الوضع .

---

١ - العقاد (اللغة الشاعرة) ص ٨٣ - ٨٤ .

ولا نريد أن نخوض في ذلك الجدل حول أصل اللغة ، أصطلاحيّة هي أم توقيفيّة؟ فقد يُخْرِج الحديثُ في هذا الأمر الباحثَ عن إطار التفكير اللغويّ الخالص ، بَيْدَ أنّه يَلْزم أن يقال : إنه لا ينبغي أن يترتب حتى على التسليم بتوقيفيّة اللغة إنكارُ أسباب الترادف واحتمال أن يأتي به تطاوُلُ الزمان ، وتفاعل الإنسان مع نفسه وغيره من البشر وسواهم من المخلوقات على صعيد العربيّة ولهجاتها أو اللغات الأخرى التي لا يُعقل أن تكون جميعاً توقيفيّة . فلو كان ذلك القدر التوقيفيّ من اللغة - على فَرض التسليم بمبدأ التوقيف - خالياً في مبدئه من المترادفات فإن المراحل الزمنيّة المتعاقبة كفيلة بإيجاد نوع من الترادف الذي قد تجره أسباب التباين بين الناس ، من جغرافية ، وعَقَديّة ، وطبقيّة ، وتاريخية ، وغيرها . وما يترتب على هذه الأسباب من تباين في اللهجات واللغات والعادات والأعراف وغيرها من الأمور .

ولا شكّ في أن هذا التباين لا يمشي في خطوط مستقيمة تماماً ، ولا يكفي في وضعه أن يقال : إنه يسير في اتجاهات شتّى تفرّعت بانتظام عن نقاط مختلفة من محيط دائرة واحدة ، فكلّما ابتعَدتْ عن ذلك المحيط ، أو كلما كانت نقطة انطلاقها من ذلك المحيط مجافية لنقطة انطلاق أخرى ازدادت الفروق .

إن هذا التصوير الهندسي يعجز عن تصوير دقيق لملابسات الظاهرة الإنسانيّة . واللغة ظاهرة إنسانيّة تتداخل فيها خصائص اللهجات واللغات تداخلاً عجيباً ، مستقيماً واضحاً حيناً ، ملتفّاً مُتَداخلاً أحياناً ، وقد يبدو منطقيّاً في جانب ، ولكنّه يتجافَى عن التفكير المنطقيّ في جوانب وإلّا فكيف نفسر تباين البشر في لهجاتهم ، ولغاتهم لو كان الأمر منوطاً بالمنطق . إنّ اللغة

تشق طريقها على ألْسِنَة جمهور من الناس بعفويّة تشبه انشقاق الطريق على نحو عفويّ أمام السيل . ولو كان الأمر موكولاً إلى المنطق لما اختلفت اللغات كثيرا بين البشر ، ولكان انشقاق طريق اللغة أشْبَهَ بشق قناة صناعية يَبْحث لها الفنّيون والمهندسون عن أخْصَر الطرق وأفضل المواصفات ، ولَمَا تجاوزت عندئذ أنْ تكون لغة صناعيّة محدودة ، كتلك اللغات التي يُتَعامل بها مع الحاسوب .

وقد أدرك بعض القدماء أثر الزمان ، وتفاعلاته الفكرية ، والمكانية ، والعرفية ، في تسويغ التباين والاختلاف الذي أدى إلى الترادف . فقالوا في أسباب وقوع اللفظ المرادف :«أن يكون من واضعين ، وهو الأكثر ، بأن تضع إحدى القبيلتين أحَدَ الاسمين ، والأخرى الاسم الآخر للمُسَمَّى الواحد ، من غير أن تَشْعر إحداهما بالأخرى ثم يشتهر الوَضْعان ويَخْفى الواضعان أو يَلْتبس وَضْع أحدهما بوضع الآخر»[1] .

ولّما كانت هذه الظاهرة مُتَعَّددة الأسباب والملابسات ، وتحتاج إلى تفسيرات عديدة فحسب هذا البحث أنْ يلقي الضوء من خلال المنهج التاريخي المقارن على بعض الجوانب التي قد تُفَسّر بعضَ الأسباب التي أدَّت إلى نشوء هذه الظاهرة أصلا . والنظرة التاريخية مهمة في تفسير هذه الظاهرة . فكثيرا ما وقف التاريخ جداراً سميكاً لا يَشِفّ عن شيء مِمَّا وراءه . وقد عبّر ابنُ جنّي عن هذا الإحساس وهو بصدد الحديث عن ظاهرة الترادف ، فقال : «وقد يمكن أن تكون أسباب التسمية تخفى علينا لبعدها في الزمان عنا»[2] .

---

١ - السيوطي (المزهر) ٤٠٥ / ٤٠٦

٢ - ابن جني (الخصائص) ٦٦/١

وما كان جدار التاريخ هذا لِيَشِفّ بعض الشيء فترى بعض الاستنتاجات من ورائه ، لولا بعضُ الأدوات التي قد يُطْمأنّ إليها في الوصول إلى هذه الاستنتاجات .

ولذا فانّ هذا البحث سوف يلجأ إلى المنهج التاريخي المقارن - من خلال اللغات الساميّة - في تناول جانب واحد من هذه الظاهرة ، التي تبدو في المعجم على صورة ما ، من صُوَر تكرار المعنى نفسه لألفاظ متعددة .

وينبغي قبل الدخول في هذه المسألة أن نوضح الأمور الآتية :

أولاً : أنّ ما يبدو تكراراً للمعنى نفسه إزاء ألفاظٍ متباينة قد يكون مَرَدُّه صعوبةً في التعريف باللفظ ، من غير اللجوء إلى الألفاظ التي تشترك مع ذلك اللّفظ في مَناحٍ من التشابه والتقارب ، وربما التماثل من بعض الجوانب . وعلى هذا يكون تكرار المعنى ليس مقصوداً ، وإنّما أمْلَته الحاجة إلى توضيح المعنى . فالمعاني كثيراً ما تكون متجاورة ،مما يُغري المعجميّ بأن يستثمر أحدها في توضيح الآخر . ولعلّ من أشدّ المشكلات المعجمية فَنِّياً ما يواجهه المعجمي من صعوبة بالغة في مَهَمَّته ، وهي توضيح معنى اللفظ توضيحاً كافياً لإبراز معناه ،على وجه الدقة التي يَظْهر معها المعنى الخاص للكلمة ، بمقدارٍ تتميّز به عن سواها تَمَيُّزاً لا تختلط فيه المعاني .

ثانيا : أنّ الترادُف لا يكون تماثلاً تاماً في المعنى دائماً . فاللفظ الواحد قد يكون في استعمال من استعمالاته مرادفاً إلى لفظ آخر بمعنى المطابقة في الدلالة ، ولكنّه في استخدام آخر من استخداماته قد يكون مغايراً على نحوٍ ما لذلك اللفظ . وعلى هذا فإنك تَقول في التعريف بالرِّئْبال ، أو الغضَنفر ، أو

الهِزَبر : إنه الأسد ، ولا شَكَّ في أن كل لفظة من هذه الألفاظ تُمَثِّل الأسد في صفاته المتعدّدة ، ولكنها في بعض سياقات الاستعمال لا تعدو أن تكون ألْوانا من المترادفات ، وقد تُغْني إحداها عن الأخرى ، وتَقِلُّ بذلك أهمية الفروق التي يمكن أن تكون بينها .

ثالثاً : أنّ التطور التاريخي قد ينتهي إلى توظيف بعض التحوّرات اللغوية كالتلوين النطقيّ لبعض الكلمات من إنسان لآخر أو من بيئة لأخرى فيكون سبباً في نشوء معنى جديد ، حين يَلْتبس الأمر ، فيحسب المستعمل اللغويّ مع الزمن أن كلَّ تلوين نُطقي يمثِّل أصلاً مُخْتلفاً . وقد تَكْثر الأمثلة على ذلك في تلك الألفاظ التي تتباين القبائل في طريقة نطقها ، أو نطق بعض حروفها ، أو يتباين في نطقها السليم والألثغ ، ثم يترتب - مع الزمن - على تباين النطق ، تباين على نحوٍ ما في المعنى لكل نُطْق ، ثم يُظَنّ بعدئذٍ أنَّ كل نُطق يمثِّل أصلاً مغايراً .

وعلى هذا فإنّ كلمة هُزروف هي كلمة أُزروف ، والناقة الهزروف هي الأزروف (السريعة) ، وإن تعاملت المعاجم مع الكلمتين على أنهما تُمَثّلان أصلين متباينين . وقُلْ مثل ذلك في أَنار وهنار ، وأيا وهيا ، وفي ابْذأرّ وابذعر إلى غير ذلك من أمثلة مستفيضة سبق أن عالجناها من قبل[1] .

ولعل مما يضاعف من ذلك أيضا أنْ يَتَأَتّى للكلمة لون من ألوان القَلْب المكانيّ كما في جَذَب وجَبَذ ، وبَخْنَقَ وخَنْبَق ، فيحتسب هذا لوناً من ألوان الترادف[2] .

---

١ - انظر : عمايرة (الأقيسة الفعلية) ص ٢٢ وما بعدها

٢ - انظر : البركاوي (الإبدال) .

ولعل «ابنَ جنّي» أكْثرُ القدماء الذين وقفوا على ما بين الألفاظ من تشابه في المعنى كلّما تشابهت في اللفظ ، فقد أفاد من ملاحظات شيخه «الفارسي» ، ومن طريقة «الخليل بن أحمد» في تقاليبه التي أجراها لِحَصْر الثروة اللفظيّة للعربية في كتابه «العين» . وقد سمّى «ابنُ جنّي» هذه الظاهرة «تصاقُب الألفاظ لتصاقب المعاني»[1] .

ومن أمثلته على ذلك «هزّ» ، و«أزّ» فتؤزهم أزّاً «أي تزعجهم وتقلقهم ، فهذا في معنى تهزهم هزّاً ، والهمزة أخت الهاء ، فتقاربَ اللفظان لتقارب المعنيين»[2] . ولكن «ابن جنّي» أخذ يلتمس الفرق بين الكلمتين ، فقرر أنّ «الأَزّ» أقوى من «الهَزّ» ، لأن «الهمزة أقوى من الهاء»[3] . وهكذا مَضَى «ابن جنّي» في معالجة هذا الباب . وعلى هذا المنوال نسج كثير مِمَّن جاء بَعْدَه من القُدامى .

وأما المحدثون فقد أفاد بعضهم من هذه الظاهرة ، واستدلّ بها على أن «الألفاظ المتقاربة لفظاً ومعنىً هي تَنَوعاتُ لَفْظ واحد»[4] .

وقد ذهب أصحاب مذهب الأصل الثنائي للألفاظ العربية إلى تأييد نظريتهم بهذه الألفاظ التي تصاقبت ألفاظها فتصاقبتْ معانيها من أمثال «جرجي زيدان» في كتابه «الفلسفة اللغوية» ، و «مرمرجي الدومنكي» في

---

١ - ابن جنّي (الخصائص) ١٤٥/٢
٢ - ابن جنّي (الخصائص) ١٤٦/٢
٣ - ابن جنّي (الخصائص) ١٤٦/٢
٤ - جرجي زيدان (الفلسفة اللغوية) ص ٥٩

كتابه «المعجمية العربية» الذي قال فيه : «مذهبنا غير مألوف بين علماء العربية ، ألا وهو مذهب «الثنائيين» المعاكس لمذهب الثلاثيين»[1] .

ولست أريد - هنا - أن أُفَصّل القول في مذاهب الثنائيين أو الثلاثيين ، وأصول هذه وتلك ، والحُجَج المقدمة من هؤلاء وأولئك ، إلاّ بمقدار ما يَلْزم في التنبيه على المشكلة التي أنا بصددها ، وهي تكرار المعنى نفسه لألفاظ تبدو متباينة . وسأتناول ذلك من خلال مثلٍ معجميّ مُسْتقىً من مواد كثيرة من مواد المعجم العربي القديم .

ولّما كانت هذه الظاهرة التي نحن بصددها لا تقتصر على موسوعة لغويّة دون أُخرى ، فقد رأيت أن أقدّم الأمثلة من إحدى هذه الموسوعات اللغويّة ، وهي «لسان العرب» . و«لسان العرب» لابن منظور من أهم هذه الموسوعات اللغوية وأكثرها استيعاباً وشمولاً ، فقد استوعب ابن منظور - كما هو معلوم - معجماتٍ مهمةً قبله استيعاباً ، كالصحاح للجوهري ، والتهذيب للأزهري ، والمحكم لابن سيدة ، والجمهرة لابن دريد والنهاية لابن كثير ، وغيرها . ولو قدمت الأمثلة من معجم آخر كتاج العروس للزبيدي ، أو القاموس المحيط للفيروز آبادي لما غيّر ذلك في جوهر النتائج شيئاً يذكر .

جاء في «لسان العرب» في معنى :

- دفّف على الجريح : أجهز عليه (مادة : دفف)

- وذفّف على الجريح : أجهز عليه (مادة : ذفف)

---

١ - الدومنكي (المعجمية العربية) ص ٦

- ودفا الجريح دفواً : أجهز عليه (مادة : دفا)

- ودأف عليه : أجهز عليه (مادة : دأف)

- وذأف عليه : أجهز عليه (مادة ذأف)

- وأزعف عليه : أجهز عليه (مادة زعف)

- وأزأف عليه : أجهز عليه (مادة : زأف)

- وأزهف عليه : أجهز عليه (مادة : زهف)

- وأذعفه : أجهز عليه (مادة : ذعف)

فهذه ولا شك مواد متباينة الموقع في المعجم ، بَيْدَ أنها متحدة المعنى . ولا شك في أن هذا مما أغرى أصحاب المذهب الثنائي بِعَدِّ هذه الألفاظ تَنَوُّعاتِ لَفْظٍ واحد ، بمعنى أن الأصل التاريخيّ فيها واحد ، ثم أخذ هذا الأصل يخضع لأسباب مختلفة ، جعلت من المادة مواد متباينة ، ومن الأصل أصولاً متعددة .

فقد نَصّ في مادة «دفا» و «دفّ» على أن الأصل «دفّ» ولكن قبيلة جُهَيْنة كانت تقول «دفا» . ولا شك في أن «دفا» بهذا المعنى الذي ورّطهم في قتل أسير أسروه ، قد خَلَّصهم من التشديد في «دفّ» . وهي ظاهرة «المخالفة» الصوتية المعروفة Dissimilation وتقتضي التخلّص من التشديد بإقحام حرف غريب على الحروف الأصلية للكلمة ، وأمثلة هذه الظاهرة معروفة في العربية واللغات السامية[1] .

وفي الحديث أن قوما من جُهَيْنة جاءوا النبيّ بأسير يَرْتجف من البرد ،

---

١ - انظر : عمايرة (الأقيسة الفعلية) ص ٤١ وما بعدها .

فقال لهم : اذهبوا به فأدفوه ، يريد الدفء من البرد ، وهي لهجة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنّهم قتلوه ، لأن معناها في لهجتهم تعني اقتلوه[1] .

وكذلك تبادل هذين الحرفين مع الزاي .

ومما يستوقف في هذه المواد التي ذكرناها أنْ تجد عند المقابلة باللغات الساميّة ما يميل بك إلى القناعة بأن الأمر لم يتوقف على مجرد التبادل بين الدال والذال والزاي لِتَنْشأ لدينا «ذأف» من «ذفّ» ، و«دأف» من «دف» ، و«زأف» من «زفّ» ، فإنك تجد أن الفاء تبادلت مع الباء أيضاً . فقد قابلت «زفف» العربية «زبب» السريانية . فنجد في السريانية[2] كلمة ܙܒܒܐ zbābā وتعني الماء القليل ، في مقابل الذّفاف في العربية وتعني : الماء القليل ، وإنك لَتجد المعنى نفسه من «ذبب» فالذُّبابة البقية من مياه الأنهار . وتبادلُ الباء والفاء معروف على صعيد العربية ، نحو بحر زَغْرَب وزَغْرَف[3] : غزير المياه ، وضبر وضفر ، إذا وثب . والبرغل والفرعل : ولد الضبع . . .

فمفهوم «الماء القليل» مفهوم قديم التقت عليه السريانية والعربية في «ذفّ» ،و «ذبّ» ، و «زبّ» ، وإذا لم نبعد مفهوم الماء القليل عن مفهوم «البلل» بالماء ونحوه كان لنا أن نضم إلى ذلك ما قيل في «دفت» و «ذفت» الشيء بلّلته بشيء من الماء ، وقد أوردت المعاجم «داف» تحت مادتي «دوف» و «ديف» بالدال ، والذال ، وبالواو والياء . والقول في تعليل هذه لغوياً هو ما قلناه في تعليل اشتقاق المهموز «دأف» أو «ذأف» من دفّ أو ذفّ ومجال المقابلة في

---

١ - انظر : ابن منظور (اللسان) دفا ٢٦٤/١٤

٢ - انظر : اغناطيوس (السريانية) ص١٨

٣ - انظر : ابن منظور (اللسان) زغرف ١٣٦/٩

العربيّة بين «زأف» و «ذأف» قائم في دلالة كل منها على الموت السريع . وقد مرّ بنا أنه ورد في تفسيرها جميعها التعبير بـ «أجهز عليه» . ولم يفت ابن منظور أن يقابل بين أصل زأف (وهو : زف) وأصل ذأف (وهو :ذف) ، قال : «والزفيف السريع مثل الذفيف»[1] .

وقد استعرضنا مجموعة من المواد المتقاربة في المعجم فلاحظنا أن المواد الآتية منها اشتركت في معنى السرعة ، وبخاصة سرعة الحركة وسرعة الموت ، وهي : دفف ، دأف ، دعف ، دلف ، درعف ، دفا ، دأب ، ذفف ، ذأف ، ذعف ، ذوف ، ذيف ، ذرعف ، ذرف ، ذبب ، زفف ، زأف ، زرف ، وغيرها أيضا .

واشتركت المواد الآتية في الدلالة على الموت السريع ، أو السم القاتل ، وهي :

دفف ، دأف ، دعف ، ذفف ، ذأف ، ذعف ، ذوف ، ذيف ، ذرعف ، ذبب ، ذلعب ، ذعلب ، وغيرها من المواد التي أحسب أنها انحدرت في الأصل من أصل واحد ، كأن يكون «ذف» أو «دف» أو «زف» أو «زب» أو «زف» . ولا يَبْعُد أن تعود هذه الأصول كلها إلى أصل واحد . ولكنّ تقارب الأصوات أدى إلى تباين بين القبائل أو الأجيال في نطقها ، ثم انشعب من كل تلوين صوتيّ اشتقاقات استثمرتها اللغة العربية واللغات السامية في أداء ما احتاجت إليه من تَوسُّع أملته حاجة اللغة ، ومقتضياتُ تطوّرها مع توالي الأجيال اللاحقة . وقد بقي من آثار الأصل البعيد لهذه الكلمات ما تَذْكره المعاجم مُكرراً من المعاني مع مشتقات انشعبت عن هذا التلوين أو ذاك ، دون أن يكون بين هذه

---

١ – انظر : ابن منظور (اللسان) زفف ١٣٦/٩

المعاني فرق يُذْكَر . وعلى هذا فإن التكرار الملحوظ بين هذه المواد ، كما هي الحال في دلالتها على الموت أو السم الناقع ، ليس عيباً في المعاجم ، وهو بناء على هذا التفسير ، ليس من باب عدم الدقة ، وإنّما من باب تكرار ما كان في الأصل معنى مشتركاً قديماً يمثّل الأصل التاريخي القديم لهذه الكلمات .

وعلى هذا نجد في مادة «ذأف» أن الذئفان و الذيفان : السم القاتل . وفي مادة ذوف : الذوفان : السم المنقع ، القاتل ، والذعاف من ذعف : سم ساعة سريع ، وكذلك الدعاف من دعف ، والسم الزعاف من : زعف .

ولو لم يكن هذا التفسير لجاز لنا بيسر أن نَرْمي المعاجم العربية القديمة بالتكرار وعدم الدقة في التفريق بين المعاني . بَيْدَ أنَّ الأمر يحتاج قبل أنّ تُلْقى هذه الأحكام إلى تأمل وتبصُّر .

ومن طريف ما يقع المرء عليه أن يَعْثُر على وجه الشبه بين «ذبب» بالعربية و «زبب» بالعبرية זבב . فالذَّبْذَبة بالعربية سرعة في التّردد جيئة وذهاباً . هذا هو المعنى الحِسّيّ القديم ، ومنه جاء معنى «الذَّبْذَبة» بمعنى الاضطراب أو عدم الاستقرار ، ومن المفهوم الحسي جاءت تسمية الثور : «الذّبّ» ، وهو الثور الوحشي . «سمي بذلك لأنه يختلف ولا يستقر في مكان واحد ، وقيل لأنه يرود فيذهب ويجيء»[١] ، ويقال : فلان ذبٌّ : يذهب ويجيء ، بمعنى يتذبذب في حركته . ومن معاني مشتقات هذه الكلمة : ذُبابة الشيء بمعنى بقيّته ، وهذا يذكّرنا بما سبق أنْ قلنا من أن بقايا الماء تسمى الذبابة ، وهي في السريانيةzab̲āb̲ā .

١ - انظر : ابن منظور (اللسان) ذبب ١/٣٨١

وقـد يعـود هذا إلى أنَّ الذّباب يتكاثر على الميـاه الضـحلة . أَمّا الذُّبابة نفُسها فمن المعروف أنَّ حركة جناحيها ذَبْذَبة سريعة . وفي هذا تَلْتقي الذّبذبة بالسرعة كالدَّفْدَفة (من دفف) وهي سرعة ضَرب الدُّف ، وهي سُرعة مع ذَبْذبة أو دَفْدفة ، بمعنى نَقْل العصا التي يُضْرب بها الدُّف من جنب هذا الطبل إلى جنبه الآخر في سرعة وتَرَدّد . ولذا سُمِّي كل جنب دفّاً . ودفّتا الكتاب ورَقتاه المتقابلتان وفي العبرية דַּף «داف» وتعني صفحة الكتاب .

وقد دلت مادة «زبب» זבב في العبرية كذلك على التذبذب والاضطراب ، وسـمـيت الذبابـة זְבוּב «زبوب» ، وذلك من شـدة التذبذب في جناحيها ، ولما كانت هذه سِمَة في الذبابة والنَّحْلة وحشرات أخرى فقد أُطْلقت في العربية على النحلة ، والزّنبار ، وعلى ذلك النوع السّام من الذّباب الذي يقع على الجمال والبقر فتفر منه . وتعني الذبابة في الأكادية Zembo وهي من «زبّ» كالعبرية ، وقد فُكّ التشديد بإقحام الميم وهكذا تصبح الكلمة كما لو كانت من «زمب» وتسمى الذبابة بالسريانية[1] ܕܶܒܳܒܳܐ «ديبابا» أو ܕܒܳܒܳܐ «دبابا» من «دب» وهي في المهريّة «ذبّيت» debbet من «ذبّ» وهي في الأمهرية «زمب» zemb أي من «زبّ» وقد فكّ الإدغام على نحو ما حدث في الأكادية[2] .

لا شك في أن العودة باللغة إلى هذه المعاني العتيقة وتتبع الأثر الذي تنم عنه اللغات السامية ، مع الوقوف على المعاني المشتركة فيما بينها ، لَيَكْشف

---

١ – انظر : لويس (السريانية) ص ٥٧
٢ – انظر : جزينيوس (العبرية) ص ١٩١

عن أصول قديمة تمثل وَضْعاً لما كانت عليه اللغة ثمّ تطورّت دلالات الألفاظ بتطورّ أصواتها وصيغها ولكنها ما تزال تحمل ما قد يدل على أصول وأوضاع قديمة لها : صوتا وبنية ودلالة . وقد يسعف البحث الدلالي المقارن في الوصول إلى تفسيرات أعمق وأدق في تفسير الظواهر التاريخية في تطور اللغة ، على نحو ما بدا لنا في هذه الوقفة على أنموذج لغوي من المعجم ، يُعلل : كيف عملت التغيرات الصوتية في نشوء صيغ جديدة؟ ثم كيف أَخذت اللغة تُوَظّف هذه الصيغ الجديدة لأداء معان جديدة ، بَيْدَ أنَّها احتفظت ببقايا مما يبدو «تكراراً» وهو في واقع الأمر مَعالِم أثرية تالدة حملتها هذه الألفاظ المُتَفَرِّعة عن أصلها العتيق إلى جانب المعاني الجديدة التي أضفاها عليها تطوُّر الدلالة وحاجة اللغة إلى التوَسُّع . والله سبحانه أعلى وأعلم .

المصادر والمراجـع

(مرتبة وفقاً للمختصرات التي وردت عليها أثناء البحث)

أعناطيوس (السريانية)=

أغناطيوس يعقوب الثالث : البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية ، دمشق ١٩٦٩ .

البركاوي=

Abdel Fatah el Berkawy, Die Arabischen Ibdal Monographien insbesondere das Kitab al-Ibdal des Abu t-Tayyib al-lugawi. Dissertation, Erlangen 1981

جزينيوس (العبرية)=

Wilhelm Gesenius, Hebraisches und Aramaishes Handwörterbuch über das Alte Testament, bearbeitet von Dr. Frants Buhl 17. Auflage, Germany 1962.

ابن جنّي (الخصائص)=

أبو الفتح عثمان بن جنّي (ت ٣٩٢ هـ) ، الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الهدي ، بيروت .

الدومنكي (المعجمية العربية)=

أ .س . مرمرجي الدومنكي : المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنية السامية ، مطبعة الآباء الفرنسيين في القدس ١٩٣٧م .

زيدان (الفلسفة اللغوية)=

جرجي زيدان : الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ، طبعة مراد كامل ، دار الهلال .

السيوطي (المزهر)=

جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) :المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى ، وعلي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر .

العقاد (اللغة الشاعرة)=

عباس محمود العقاد : اللغة الشاعرة ، مكتبة غريب ، القاهرة .

عمايرة (الأقيسة الفعلية)=

إسماعيل أحمد عمايرة : معالم دارسة في الصرف العربي - الأقيسة الفعلية المهجورة ، إربد - الأردن .

عمايرة (بجد كفت)=

إسماعيل أحمد عمايرة : ظاهرة «بجدكفت» بين العربية واللغات السامية - دراسة مقارنة ، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد (٣١) ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م .

فريحة (عربية ميسرة)=

أنيس فريحة : نحو عربية ميسرة ، دار الثقافة ، بيروت .

لويس(السريانية) :

Louis Costaz, Dictionaire Syriaque - Francais, Syriac- English Dictionary,قاموس سرياني عربي Beiruth.

ابن منظور (اللسان)=

ابن منظور الأفريقي (٧١١ هـ) : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت .